

عبد الناصر واليسار المصري

(٢)

اليسار الي واليساريون وجها لوجه

الرئيسية التي اعتمد عليها كل من الكتاب السبعة في رده على الدكتور زكريا . ولكن من الواجب أن نقرر منذ البداية ، أن المقالين الآخرين لفؤاد زكريا ، يوضحان استعداد الرجل للاستفادة الفكرية من مجرد الحوار ، وقدرته على تعديل كثير من ملاحظاته أو استكمالها بتأشير من - أو في ضوء - ملاحظات وتعليقات الآخرين ، الذين لم يعتبرهم خصوما (وقد اعتبره بعضهم خصما) ولم يوجه اليهم قذائفه وان كان قد اتهمهم بالخروج على مبادئهم ومطالبهم بالالتزام بها ، هذا رغم أن الدكتور زكريا كان من الكبرياء بحيث لم يشأ أن يعترف صراحة بأن يعمل بعض ملاحظاته أو يستكملها بهذا التأشير أو في ذلك الضوء ، واكتفى بأن امتدح موضوعية بعض الكتاب ، وانتقد ما ظهر لدى كتاب آخرين من رغبة في التهميم أو التجريح أو التفكه ، وهاجم دون موارد ما لجأ اليه آخرون من بلاغة انشائية لا تعبر عن معان أو عن حقائق محددة .

● استند فتحي خليل في رده على القول بوجود علاقة عضوية وفكرية وكفاحية بين ثورة ٢٣ يوليو وبين اليسار ، وأن مناعب الثورة ومناعب اليسار جميعا ، نشأت من غياب حقيقة هذه العلاقة « الأساسية » عن الثورة أو عن اليسار أو عن كليهما معا لفتريات تقصر أو تطول . وأنه يستحيل بالتالي على اليسار ان ينفض يده من تجربة انطبعت بصماته على تفكيرها وبرامجها قبل ٥٢ ، وبعد ذلك حتى يومنا هذا ، وأن موقف اليسار من اخطاء الثورة هو تصحيحها ، ومن المنجزات تطويعها ، ومن اليمين رده على اعقابها .

● ويكرر فليبي فكرة الفرق بين موقف اليسار من « السليبيات » وبين موقفه من الإيجابيات ، ويؤكد أن اليسار هو الذي قدم أكثر التقييمات لثورة يوليو موضوعية بقدر ما اتيج له من فرص التعبير (لا من فرص المعرفة والفهم) ، وأنه لم ينتقد ثورة يوليو احد مثلما انتقدها اليسار ، ثم يستند فليبي الى الحاجة المنطقية فيسأل لماذا يهاجم اليمين التجربة الناصرية اذا كانت كما وصفها الدكتور فؤاد زكريا ، ويسأل : اذا كان العهد الناصري قد خرب نفس الإنسان المصري فكيف اذن حقق هذا الإنسان المخرب معركة أكتوبر ونصر العبور ؟ ويضيف فليبي أن اليسار هو الذي انتقد محسولات الابطاء في التنمية وفي التغيير الاجتماعي ، وهو الذي طلب ديمقراطية أوسع للجماهير الشعبية وضرب الطبقة الجديدة ، وهو الذي طلب الكشف والتعبئة الشعبية وتصفية الطبقة الجديدة بعد ١٩٦٧ .

... في سبيل البحث عن اجابة لسؤال يقول : لماذا يدافع اليسار المصري عن التجربة الناصرية ، رغم انها لا تعبر عن مبادئه ، بل قامت ضد هذه المبادئ ، وسحبت الأرض من تحت اقدامه فخنته وهي تتظاهر باحتضانه،واقامت مجتمعا طبقيًا لا يقل ضراوة ومهارة واستغلالا عن المجتمع الذي هدمت هذه التجربة نصفه وامتزجت بنصفه الباقى، وفي سبيل الاجابة على سؤال اخر يقول : لماذا لا يسرع اليسار المصري بنقض يده من هذه التجربة التي يهاجمها الان اليمين لمحاولة هدمها وهدم اليسار معها ، حتى يتمكن اليسار من استعادة ذاته وجماهيره وبناء مستقبل جديد لنفسه ولها .. كتب الدكتور فؤاد زكريا ثلاث مقالات في مجلة « روز اليوسف » القاهرية ، فرد عليه سبعة كتاب يساريين بثماني مقالات : سبع منها في المجلة نفسها للرد على ما قاله الرجل صراحة أو على ما اكتشفه اصحاب الردود بين السطور وكان اصحاب الردود بالتتابع هم : فتحي خليل (٥ مايو) ، وفليبي جلاب (١٢ مايو) ، وأحمد طه (١٩ مايو) ، ونجيب محفوظ (من خلال حديث قصير اجراه معه في ٢٦ مايو فتحي خليل) وأديب ديمتري (٢ يونية) ، وأبو سيف يوسف (٩ يونية) ومحمد عودة (١٦ يونية) . ثم اضاف ابو سيف يوسف تعليقا وردا نامنا في مجلة الطليعة (في عدد يوليو ١٩٧٥) حاول فيه ان يكشف التناقضات الكامنة في تطور فكر الدكتور زكريا ، وعزلته الكاملة عن حركة الواقع السياسي والاجتماعي المصري ، وتضارب مراحل تطوره الفكري مع مراحل القضية الوطنية المصرية في سنواتها العشرين الاخيرة . وكان أن قرر الدكتور زكريا ، وأصر على أن يرد على الردود السبعة الأولى (ومن الواضح انه لم يكن قد قرأ بعد المقال الثاني لابو سيف يوسف في الطليعة) ، فكتب مقالين اضافيين للرد على الردود (روز اليوسف ، في عدد ٧ ، ١٤ يوليو) (١) .

وقد يكون من المفيد أن نقدم - قبل أية مناقشة - النقاط

(١) وكان الكاتب القصصي ثروت أباطة ، قد حشر نفسه في النقاش ، وكتب يؤكد أنه من أهل اليمين وأن أهل اليمين لا علاقة لهم بامتلاك الأرض ولا بالاستغلال ، وإنما هم المؤمنون بالله والديموقراطية ، وأن الشيوعيين كفر وفاشيست ، وبالتالي فإن فؤاد زكريا نفسه يميني يفض الشيوعيين (روز اليوسف في ٩ مايو) ولم يرد عليه احد سوى سعيد خيال .

موجهة في الأساس الى تصفية الامبريالية ونظامها الرأسمالي العالمي وفتح الطريق الى الاشتراكية) ، المعيار الموضوعي - بناء على ذلك - « هو انتهاز سياسة نشطة في مواجهة الامبريالية » هذا عن الخارج اما عن الداخل فهو : « دعم الاستقلال الوطني السياسي والاقتصادي وتحقيق التقدم الاجتماعي » . فقط دون أن تكون « الديمقراطية » معيارا اول واساسيا ، إذ يتضح مقدار اهميتها من تطيل اديب ديمتري نفسه . ولكن كنؤجل المناقشة الى ما بعد .

● وبعد اديب ديمتري يأتي ابو سيف يوسف ، فيكتفي بمناقشة فؤاد زكريا حول تناقضاته مع نفسه من خلال عدة مقالات كان قد كتبها قبل وفاة عبد الناصر وبمناسبة وفاته ، وكيف كان فؤاد زكريا يشيد بعبد الناصر (١) ، ثم اضاف ابو سيف في « الطليعة » قراءة تحليلية وتاريخية لبعض كتب فؤاد زكريا ، لكي يثبت ان « استاذ الفلسفة » كان منقطعا عن واقعنا الاجتماعي ومراحل تطور ومعارك حركتنا الوطنية بعد ١٩٥٢ : فهو يكتب عن نيتشه في نفس عام تأميم قناة السويس ، فيدافع عن العقل واللاعقل معا ، وفي عام ١٩٦٢ ، عام صدور الميثاق وبعد سنة من قوانين التأميم ، يصدر الدكتور زكريا كتاب : « نظرية المعرفة والموقف الطبيعي للانسان » ، فيشيد بالفلسفات والمناهج المثالية ، ويفسرنا تفسيرنا مثاليا ، بينما هو يحاول أن يهاجمها وان يقدمها من منظور تفدي ، وفي عام ١٩٦٦ الذي يصفه ابو سيف بأنه كان عام : « المعارك غير المحسومة سياسيا واجتماعيا واقتصاديا وفكريا .. رغم ان الثورة كانت لا تزال صامدة تشدد النضال ضد الاستعمار الجديد وضد اسرائيل . » في ذلك العام ، يكتب فؤاد زكريا مقالا يطالب فيه بعدم الهجوم على الوضعية المنطقية لانه ليس تيارا منتشرأ وليس من التيارات الفكرية القومية ، ثم يترجم كتاب « نشأة الفلسفة العلمية » من تأليف هانز رايشنباخ ، أحد اقطاب الوضعية المنطقية . وبدلا من مناقشة فؤاد زكريا ، بطور ابو سيف هجومه على الوضعية المنطقية ، لكي يكشف في النهاية عن ضرورة اكتشاف « العلاقة المعقدة جدا بين الوضعية المنطقية وبين حركة المجتمع المصري » .. وبدأ اكتشافه بنفي ان يكون قادة الثورة المصرية (بالقطع) من تلامذة الوضعية المنطقية (٢) ، ولكنهم رغم هذا رفعوا بالفعل شعار « التجربة والخطأ » - وهو شعار وضعي كما ترون . لانه يقوم على رفض اتخاذ او قبول نظرية محددة . وهذا الرفض مسؤول عن التخطئ والقصور في خطط التنمية وعملية التحول الاجتماعي المصرية ، لان : « أي حركة ثورية لا تستكمل نظريتها في بناء المجتمع والدولة ، انما تبدد وقتنا وهينا وطاقة هائلة في البحث عن نظرية تسترشد بها » . وكان هذا النقص - بالنسبة لثورة يوليو - مأساة حتى صدور الميثاق الذي هو « الوثيقة النظرية للثورة » . ولكن بعد صدور قرارات التأميم وميثاق العمل الوطني ، « وجدت ثورة يوليو انها تخوض معركة حياة او موت ، أي معركة مصير على المستوى الايديولوجي » ، الامر الذي دفع احتدام الصراع الايديولوجي الذي يبدو من حديث ابو سيف انه استقطب بين اصحاب الاشتراكية العلمية (دعاة للتخطيط وضرورة وسائل وقوى التغيير الاجتماعي الجذري) وبين الوضعية المنطقية (داعية الى تفكيك العالم والمجتمع الى جزئيات صغيرة ، لا تربطها ، ولا تحتاج الى - نظرية شاملة ، مشككة في العلاقة الموضوعية بين الاشتراكية وبين التقدم) ورغم هذه الدلالات السياسية الهامة لذلك الجدل بين الاشتراكيين والعلميين وبين الوضعيين الناطقة في مصر في الثلث الثاني من الستينات ، فان فؤاد زكريا يصف المعركة بين الفريقين بأنها « معركة

- التهمة على الصفحة ٦٥ -

● اما احمد طه (وهو قائد عمالي وعضو مجلس الشعب) ، فيضع قدميه على بداية طريق جديد من الحوار مع الدكتور زكريا ، بقوله ان الجانب الاقتصادي والاجتماعي هو الجانب الحاسم في تقييم « الناصرية » ، ويلوم الدكتور زكريا لانه لم يضع هذا الجانب في المكانة الصحيحة التي تؤكد وزنه الخطير ، ويقول احمد طه ان « الحفاه » لم يعد ظاهرة مثقلة مثلما كان قبل ١٩٥٢ ، وان التعليم أصبح مجانيا للمعدين وان ما تحقق في مجالات التأمينات الاجتماعية والبطالة والصحة وساعات العمل كلها ظواهر تؤكد ان قدرا ملموسا من التقدم قد تحقق ، بالإضافة الى التغير الحاسم في النسبة بين نمو رأس المال العام ورأس المال الخاص . ويضيف احمد طه بعد ذلك مقولة اساسية تؤكد ان : « النضال اليومي منذ الحرب العالمية الثانية كان هو المدرسة الاساسية لتثقيف الجماهير ، خاصة المراتب المتخلفة منها ، وان ذلك في السياسة شرط لثورية الحركة الجماهيرية .. فالحركة الجماهيرية مناضلة ، واعية ، مسن الممكن خدائها في المسائل الثانوية (!!) ولكن في المسائل الرئيسية أصبحت واضحة ومحددة .. واقتصد بالمسائل الرئيسية قضية العداء للاستعمار والتحول الاجتماعي أيا كانت مسيابه (!!) .. » .

● ونؤجل التعرض لما قاله نجيب محفوظ في حديثه القصير مع فتحي خليل ، لان اديب ديمتري ، يأتي بعد ذلك لكي يؤصل الاتجاه الذي بداه احمد طه بأن يتعرض بالنقد المنهجي لاسلوب تقييم « تجربة الحكم الناصري » أو « عبد الناصر » على اساس تحديد ما يسمى ب « السلبيات » مقابل « الايجابيات » . ويطرح اديب ديمتري سؤالا أساسيا لتحديد القضية : هل هي محاكمة عبد الناصر كغدر وزعيم بكل امجاده واخطائه ، وتقييم تجربة الحكم الناصري ، ما لها وما عليها ، في الإطار المحدود الذي وقعت فيه اطار الزمان والمكان ؟ أم هي قضية الناصرية كظاهرة تاريخية وتيار وفلسفة ؟ . ويجب : « نحن بازاء ظاهرة تاريخية ، لا زالت أبعادها واثارها تنكشف منذ الخمسينات ، ويتطلب تقييمها مناهج التحليل التاريخي والاجتماعي ومعايير الموضوعية التي تتخطى أساليب التحليل النفسي واخطاء الافراد والاحكام الاخلاقية على الزعامات ونظم الحكم » . وبعد ان يحلل اديب ديمتري بسرعة لا ينقصها العمق علاقة « التجربة الناصرية » بحركة التحرر الوطني ، يسأل عن السبب الذي يدفع اليمين الان الى مهاجمة هذه التجربة هذا الهجوم المسعور ، ويقول ان الاجابة لا تكمن في المحل الاول في « شخصية الزعامات » ولا في قوائم « الايجابيات والسلبيات » وحساباتها وانها : « في طبيعة هذه النظم من حيث تركيبها الاجتماعي والاقتصادي والسياسي ، ووضعها ودورها في حركة الثورة الوطنية والعالمية في مرحلتها الراهنة .. هذه النظم جميعا .. لا تقاس بمعايير الاشتراكية ، وانما هي تنتهي بالفعل الى حركة التحرير الوطني .. فهي تعبر عن مصالح الطبقات والفئات الوطنية ... فالقيادة فيها عادة للبورجوازية الوطنية باقسامها واجنحتها المختلفة . والايديولوجية الغالبة والفكر الراجح للبورجوازية الصغيرة .. وفيه تختلط شعارات الوطنية والتقدمية والعصرية ، بصيق الافق وقصر النظر .. كما تختلط الاشتراكية بالحفاظة وقصر النظر بل بالسلفية أحيانا » .

ورغم ان اديب ديمتري يقول انه لو قامت اوضاع ديموقراطية وتحالف وطني حقيقي لعادت ثمار ومكاسب ثورة التحرر الى الشعب العامل في المحل الاول ، ورغم انه يعرف أن ثمار ومكاسب الثورة الوطنية تنكس في أيدي الطبقات الجديدة التي تلجا الى تعميم : « مصالحها ومراكزها المستحدثة بالانفراد والتسلط » ، ورغم انه يعرف ان هذه الطبقات بهذا الشكل : « تهتر شروط الوحدة الضرورية بين القوى الوطنية والتقدمية لتستبدلها بالبط و شعارات التحالف ، وبأجهزة القهر والقمع في نفس الوقت » . رغم كل هذا فانه يعلن ان المصار الموضوعي الصحيح للحكم على مثل هذه التجارب ، المستند في عصرنا من واقع حركة الثورة وقوانينها (اذ هي حركة

(١) وقد كشف فؤاد زكريا في رده التالي ان احد المقالين لم يكن هو كتابه ، وانما كان بقلم د. عبد الغفار مكاوي .

عبد الناصر واليسار المصري

— تابع المنشور على الصفحة ٧ —

الجلل « . ثم يلتفت أبو سيف مرة ثانية الى مقالات الدكتور زكريا في « روز اليوسف » التي يصف انتاصات غير المسترود (عسسية) في فكره ، بين نيتشة والنزعة التجريبية والوضعية المنطقية ، واهدائه لاولويات علم المنطق الذي يبدأ بالمحدود والتعريفات فلم يعرف الاشتراكية ولا اليسار ، وتحديث عن الانسان العادي او البسيط ، او المصري دون أن يقول لنا ما يقصد بالبسيط (١) ، هذا بالإضافة الى اعداد مقالات الدكتور زكريا لتفكير المنهجي الذي يربط به بناء المذاهب اسد الارتباط ، على حد قوله يكرهها أبو سيف للفيلسوف والعالم الرياضي وايتيد . واحيرا يناقش أبو سيف - ويدحض - اقوال الدكتور زكريا حول الافراج عن الشيوعيين المصريين عام ١٩٦٤ وارتباطه بزيارة حروشوف لمصر ، وحول امراء الشيوعيين المصريين بالانصاف الرفيعة وعن الذي اجتذب الآخر الى سمعه . سيد انصار ، ام اليسار ؟ .

اما محمد عودة فقد كتب موضوعا بلاغيا ضويلا ، يدور حول افكار عامه مجملها ان المعيار الوحيد لثوره عبد الناصر هو ما قدمه للقضية المصرية ، وان جوهر الاشتراكية واحد عند جميع انتميين (اشتراكيين علميين ، مندينيين ، ملاحده .. الخ) وانهم لذلك يجب ان يوحّدوا وقد عمل عبد الناصر على توحيدهم ، وان العليات التي واجهت « التطبيق الاشتراكي » في تجربة عبد الناصر ناسه من المعونه نظريه التي ثبت ان البناء القومي بالمجتمع يعبر بايقاع ابطا من ايقاع تغير البناء التحتي ، وان الطبقات الجديدة والانحرافات « لعنة » تصاحب الاشتراكية دائما في أي مكان وتحت أي سلطة ، رغم انها تنتهي دائما باستمرار الثورة ، اما غياب الديموقراطية (بمعنى الحريات السياسية) فقد كان ضرورة في مصر ، وفي كل التجارب الاشتراكية الاخرى ، لانه لا يمكن ان تكون هناك حريات سياسية (او ديموقراطية) في ظل : « الاممية او الجاعة او الارض او البطالة .. واغلبية سحفتها الاستبداد والاستغلال (٢) » .

واخيرا يأتي نجيب محفوظ ، الذي اتفق بالفعل مع فؤاد زكريا في اتجاهه العام الذي كان مؤداه ان مباديء عبد الناصر كانت عظيمة ، ولكنها كانت مجرد « كلام في الاشتراكية » ، وان التطبيق كان ركاما من الاخطاء المتتالية ، وان على اليسار ان يميز موقفه بناء على الدفاع عن المباديء ، وكشف اخطاء التطبيق والا : « فان الراي العام معذور اذا خلط الحابل بالنابل » .

ويرد فؤاد زكريا على نقاده السبعة في مقالين طويلين (عدي ٧ ، ١٤ يوليو من روز اليوسف) . ورغم ما ذكرته من قبل - عن وضوح استعداداته للاستفادة والتأثر براء الآخرين في المناقشة - ورغم انه اكتشف انه لا بد من التفرقة بين « التجربة الناصرية » وبين « ٢٣ يوليو » وان علاقة اليسار بالثورة المصرية لا تتوقف على نوع علاقته بسلطتها ايام عبد الناصر ، وبالتالي فليس المطلوب هو « نقض اليد » منها ، وانما تقديم النقد الموضوعي العملي لها بما

(١) ويتهم أبو سيف الدكتور زكريا بأنه اعتاد اللعب على الحبلين ، والتنقل بين معسكرين ، ويصف أسلوبه بأنه ميسر بزيقية عجيبة . ولكن هذه الصفات الشخصية لا تدخل في مجال مناقشتنا .

(٢) كانت في مقال محمد عودة نبرة حدة قتالية واضحة ضد فؤاد زكريا ، وكثير من التوصيف السياسي الذي يقصد به « التصوير » الشخصي للطرف الآخر ، وتصنيفه في جعبة اليمين الفكري .

يوضح انها ليست « تجربة اشتراكية » بقدر ما كانت محاولة لفتح طرق النمو نحوها بعد التحرر الوطني ، ورغم اكتشافه من خلال المناقشة ان موقف اليسار بعد مايو ١٩٦٤ (أي بعد الافراج عن الشيوعيين) لم يكن موقف المرتضى ، وانما كان موقفا بالغ التقدر يتضمن فدرا كبيرا من « الانخداع » باوهام لم تتحقق ، ورغم انه توقف بهدوء عند ما كتبه احمد فقه ثم اديب ديمتري في البداية ووصفهما بالتعقل والهدوء والمناقشة الموضوعية .. رغم كل ذلك فقد اثر الدكتور زكريا ، مدفوعا الى ذلك - في تقديري - بالموقف العام الذي اتخذته الردود السبعة : موقف تأكيد أن اليسار كان يفتل لكل شيء من البداية ، وأنه قال كل ما كان ينبغي ان يقال ، وأنه مع هذا يرى ان التجربة الناصرية : « كانت » تجربة ينبغي الدفاع عنها - رغم الوقوف ضد اخطائها ، لانها سارت في اتجاه الحركة الصحيحة للتاريخ : حركة النضال ضد الامبريالية والتحرر الوطني وتكوين التحالف العريض بين حركة التحرر وبين الاشتراكية العالمية ، أقول ان الدكتور زكريا دفعه هذا الموقف الى اعلان ان الهدف الاصلي من دراسته لم يكن تقييم حكم عبد الناصر أو محاكمته وانما : « تقديم رأي مخلص لليسار ، ابين فيه ان النكسة التي تعانيها الاشتراكية الان ، لا ترجع الى ضراوة هجمات اليمين ورغبته في استعادة نفوذه فحسب ، بل ترجع ايضا الى اخطاء سابقة لليسار » . وبذلك أكد فؤاد زكريا استسلامه للفخ الذي نصبه السؤال الاصلي الذي طرحته « روز اليوسف » ، خاصة حينما اوضح - بعد تأكيده لضرورة التفرقة بين التجربة الناصرية وثورة ٢٣ يوليو ان التجربة الناصرية : « كان لها نطاق محدود ، بدأ باحداث ربيع ١٩٥٤ ، وانتهى في يونية ١٩٦٧ » .. أي أنه أكد معنى اكتمال التجربة وانتهائها ودخولها ذمة التاريخ ، قبل وفاة عبد الناصر - حتى - بثلاث سنوات .

وبذلك فضل فؤاد زكريا أن يستمر في عملية البحث عن « السلبيات » و « الإيجابيات » ، وفضل أن يعتمد عن محاولة تقديم أي تصور تاريخي اجتماعي متميز وفاهم على الظروف والملابسات المحلية القومية والناحية العامة منطلبا هو في رده على اديب ديمتري - ثورة يوليو وليسار المصري في وقت واحد . بل لقد بلغ من تجاهله التميز الظاهرة المصرية (بطرفها : الثورة واليسار جميعا) لدرجة اصراره - ثلاث مرات - على الاستشهاد بمسألة ادانة ستالين من جانب الحزب الشيوعي السوفيتي : ولم يضع في اعتباره (ولا تنبه نقاده) ان الاختلاف الكيفي بين عملية محاسبة ستالين ومحاسبة عبد الناصر (لاحظ انه كان قد أصر ان يريد محاسبة عبد الناصر) اختلافا يبدأ من الفرق بين النظامين والمجتمعين الى الفرق بين الظروف التاريخية والاسلوبيين اللذين اتبعما في « المحاسبة » هناك وهنا .

ورغم ان اديب ديمتري ، حاول أن يعرج المناقشة الى المستوى « الموضوعي » بتقديم تحليل تاريخي عام للتجارب المشابهة في العالم الثالث ، مع محاولة للتركيز على الاتجاه المادي للسيطرة الاستعمارية فيها ، واستخلاص معيار اساسي للحكم عليها يتكون من شقين : العمل النشط ضد الامبريالية في الخارج ، ومن اجل الاستقلال الوطني السياسي والاقتصادي والتقدم الاجتماعي « في الداخل » ، فينسى بذلك معيار « الديموقراطية » واطلاق الحريات السياسية الحقيقية لقوى الشعب والتحالف الوطني الصامدة ، وهو المعيار الذي يضمن التأثير الفعال والحقيقي للشقين الاولين من معياره هو .. رغم كل ذلك يتجاهل فؤاد زكريا هذا الطريق « الموضوعي » والعمل الذي فتحه امامه اديب ديمتري ولم يستكمل : لقد أكد اديب ان هذه التجارب لا تقاس بمعيار الاشتراكية ، وانما بمعايير حركة التحرر الوطني والفئات المتوسطة التي تتولى قيادتها ، وبذلك يتحدد معنى وقيمة موقف اليسار منها على مراحلها المختلفة .

والوضعية المنطقية لن يؤثر في هذه الجماهير تأثيرا رجحيا ، كما ان الشرح العلمي لنظرية فانص القيمة او خطورة الامبريالية ونزاعاتها العدوانية لن يكون مجديا في سبيل التحرر .. في الاوضاع الحالية لجماهيرنا على الاقل . ربما تأثر بعض « الطلبة » وبعض « المثقفين » في هذا الاتجاه او ذاك - وهذا تأثير يحدث بالقطع . ولكننا نعرف - كما يعرف الاساتذة الكتاب - ان هذه الاعداد البالغة الضالة من قراء انطلسه (التي غالبا ما تكتب بأسلوب ، وتقوم على اسس وتمتليء باسماء ومصطلحات تحولها الى كميات من المعلومات ينساها المتعلمون انفسهم حاما ينتهون من الامتحان او يرغبون من القراءة .. اذا املوها) ليست هي الاعداد التي يمكن ان تكون كافية لاحداث انقياس التغيير الاجتماعي المطلوب ، هذا مع ضرورة الاعتراف بانها اعداد لا تنتمي الى الفئات الاجتماعية والطبقات التي يمكن ان تحقق هذا التغيير الاجتماعي - حتى بالطرق السلمية ، ان كانت هذه الطرق مفتوحة وميسرة حقا . وقد يكون هذا الفهم المفلوط والمبالغ فيه لقيمة هذه المناقشات عند ابو سيف ، هو السبب الكامن وراء اهتمامه الشديد بافتقار عبدالناصر ونظامه الى « نظرية » ، مهما السبب الاجتماعي والتاريخي لقيام هذه النظرية .

ولكننا لا نستطيع ان ننهم الكتاب « الثمانية » ، أي فؤاد زكريا ومعارضيه السبعة بانهم جميعا كانوا غافلين عن هذه الحقائق : لقد اشار فؤاد زكريا اكثر من مرة الى ان التجربة الناصرية لم تكن « اشتراكية » . وقال اديب ديمتري انه لا يمكن الحكم عليها بمعايير الاشتراكية مهما رفعت من شعارات الاشتراكية ، واكتفى احمد طه بقول انه قد تحقق « تقدم ملموس » هذا رغم ان كتابا آخرين ، مثل فتحي خليل ، قالوا بوضوح ان بصمات اليسار موجودة على النظام وعلى ثورة ٢٣ يونيو قبل قيامها ، وانه مسؤول عنها بقدر مسؤوليتها عنه ايضا ، وقال ابو سيف يوسف ان « النظام » الذي كان يسير على اسس اقتصادي ليبرالي (رأسمالي) حتى عام ١٩٦٠ ، قد بدأ ينتقل الى مواقع جديدة تماما في تطوره بتأميمات يوليو ، وبدأت ثورة يوليو ، بعد كسب المعارك ضد الاستعمار القديم ، تنتقل الى معركة من اجل تنمية اقتصادية مستقلة ، وان هذه المرحلة كانت تؤكد اقتراب معركة حاسمة مع الاستعمار الجديد ، والابتعاد عن التبعية للنظام الرأسمالي العالمي ، ووضع بناء المجتمع الاشتراكي هدفا ، وهي مقدمات جعلت الالتقاء بين اليسار والناصرية لقاء موضوعيا ، لا يقوم على البحث عن تبريرات لاطاء النظام ، وانما يقوم على « الوحدة والصراع » : الوحدة من اجل النصر على الاستعمار الجديد وكسب معركة التنمية الاقتصادية المستقلة .. الخ .. والصراع على اساس نقصد « اخطاء النظام » ... ثم يعدد ابو سيف المقالات والدراسات والملفات والمناقشات التي كتبها وشارك فيها مفكرو اليسار وكتابه ... والتي من الواضح انها وان شهدت بقاء صفحة اليسار وحسن نواياه ، فانها تشهد ايضا بانه كان « يؤذن في ماطة » ولم يكن يؤذن بين من يمكن ان يلجوا نداء الصلاة .. كان يكتب ويؤلف ويحاضر لجماهير لا تهتم الا نسبة ضئيلة للغاية منها بقضايا « التغيير الاجتماعي الحقيقي » الا اذا كانت « تحت قيادة » حركة ثورية منظمة وواعية ومسيطر عليها تتحرك وتتقود خلفها جماهير القادرين على قراءة الدراسات العميقة والجادة (بالفعل) التي كتبها اليسار ، اي جماهير الطبقات التي يمكن ان تدخل معركة ضد الاستعمار الجديد من اجل ان تسيطر على الاقتصاد المستقل ، لا من اجل ان تنفذ شعار الاشتراكية الذي رفعت ثورتها وجعلته هدفا لها ..

وبينما يعبر فيليب جلاب عن موقف مشابه لموقف ابو سيف يوسف ، فان محمد عودة (الذي يتحدث لا كماركسي وانما

وكان احمد طه قد اشار على الدكتور فؤاد زكريا ان ينسى مؤقتا الطريقة التي تتم بها تربية وتثقيف المثقفين ، مؤكدا ان الجماهير الشعبية تربي في خضم النضالات اليومية . وكان احمد طه ، القائد العمالي وعضو مجلس الشعب ، جديرا بان يواصل بناء فكرته لكي يستنتج ان مضمون ما يتعلمه المثقفون من طريقتهم فسي التربية هو الذي ادى (تاريخيا) الى انتاج هذا اليسار - وهذا التيار الليبرالي الذي يبدو فؤاد زكريا من ابناء اخر سلالة له - الذي يبدو منقطع انصلا انقطاعا كاملا بحركة الجماهير ، رغم قدرته على تصورها نظريا بشكل صحيح من الناحية العامة . الا يمكن ان يكون هذا الانقطاع - بين الليبرالية واليسار وبين الجماهير - هو السبب في امكانية تضليل حركة الجماهير في المسائل الثانوية التي لا يرى احمد طه انها ذات اهمية كبرى : اوليست مسألة مثل « الحريات السياسية » من المسائل الهامة التي تضمن عدم امكانية خداع حركة الجماهير بالمسائل « الكبرى » الاخرى ، مثل مسألة التحرر الوطني والتقدم الاجتماعي ، خاصة اذا كانت الفئات الاجتماعية صاحبة الصدارة والقيادة فئات لا تستطيع ان تكون « ثورية حتى النهاية » ومستعدة للمساومة خوفا من تعاطف حركة الجماهير نفسها ، ومستعدة لضرب هذه الحركة بالذات حتى تستطيع ان تساويم بهدوء (على القضايا الكبرى ذاتها) مع اعداء الامس الذين تسعى لمصادقتهم الان ...

ويقدم ابو سيف يوسف ، ثم محمد عودة نموذجين صارخي الوضوح على هذا الانقطاع من جانبين مختلفين في مناقشتها لفؤاد زكريا .

ما الذي يعنيه ان يكتب فؤاد زكريا عن نيته عام ١٩٥٦ ، او ان يكتب عن كومونة باريس ؟ هل كان من الضروري ان يكتب عن نيته ، وان يترجم كتابا وضعيا منطقيا ، وان يزعم ان مناقشة الماركسيين مع الموضوعين المناقشة لم تكن سوى « معركة الملل » وان وراءها نوعا من الخلافات الشخصية لكي تكتشف انه معزول عن حركة الواقع ؟ هل كان نيته والثانية الالمانية وهابنر رايشنباخ والقول بتجزئة العالم الفيزيقي وعدم قيام علاقة موضوعية بين الاشتراكية والتقدم .. هل كان لكل المناقشة حول ذلك وغيره تأثير حقيقي على « الحركة الجماهيرية » ، بل على الحركة الثقافية نفسها في مصر الستينات ، بل حتى على منهاج التعليم في اقسام الفلسفة بالجامعات المصرية ؟ لا نظن ذلك ، وما نظن الدكتور زكريا والاساتذ ابو سيف يوسف معا الا نتاجا لنفس الظاهرة : عجز تيارات الفكر والسياسة الراديكالية المصرية - لظروف تاريخية كثيرة - طوال اجيال خسة عن غرس جذورها بعيدا في تربة العقلية المصرية ، احتياج هذه التيارات الى « عمل » من نوع مختلف ، قد يكون في اشارة احمد طه عن النضالات اليومية لمحبة عابرة منه ، وان كانت لمحبة ناقصة وقاصرة .

اننا نعرف تماما دور « الوعي » في حركة التاريخ ، وفي حركة النضال من اجل التخلص الكامل من الاستغلال والقهر : من اجل الانسان الكامل والمجتمع الانساني الحقيقي . ولكن الوعي ، وفي الجماهير الامية والفقيرة والمطحونة اللاهثة باستمرار وراء لقمة العيش ، غير مزودة بثقافة ما سوى ما يقدمه لها مشايخ الجوامع والزوايا وكهنة الكنائس ، او الاذاعات المختلفة (في احسن احوال التقدم التكنيكي) هذا الوعي ، ليس هو الوعي الذي يمكن ان يربي الجماهير صاحبة المصلحة في التحرر من الاستغلال والقهر بروح الثورة ، وينتزع منها تفككها وعجزها وقلة حيلتها وفرديتها وجهلها بأبسط حقائق وقواعد العالم الاجتماعي او العالم « الفيزيقي » . ومن المؤكد ، كما يعرف الدكتور زكريا والاساتذ ابو سيف وغيرهما من الكتاب السبعة ، ان الكلام عن نيته

العمل التكتيكي ، ولا في رسم الاستراتيجية ، وإنما هي نتائج طبيعية لحركة تاريخ كامل ، يصعب لهذا الجيل ان يتجاوزها وان كان من الواجب علينا ان ندرسها ، وان نستفيد حتى بدواستهم هم لها .. في انتظار ان يثبت الواقع الجديد القيادات الفكرية والسياسية ، الليبرالية حقاً ، واليسارية حقاً التي تسعى الى « المعرفة والفهم » قبل - ومن خلال - سعيها الى « فرص التعبير » التي قد يسمح - وقد لا يسمح - بها خصوم المعرفة والفهم وحرية التعبير !.

ملحق

بعد اتمام هذا المقال ، صدر عدد ٢٨ يوليو من روزاليوسف ، محتويًا مقالا لحسن صبري الخولي ، (مستشار جمال عبدالناصر ، ومبعوثه الشخصي) يطالب فيه اولا بتحليل شخصية عبدالناصر ، حتى يمكن فهم تجربة نظامه ، ثم يقدم فيه تحليله الخاص لشخصية الزعيم الذي خدمه باخلاص وعرفه عن قرب ، فيقدم لنا صورة لديكتاتور طاغية ، يرفض آراء الآخرين ، ويستعين بمناقضاتهم وقدراتهم على التفكير ، وينجس عليهم ويشك فيهم وفي لانهم حتى ولو كانوا اقرب المقربين اليه ، ويحكم بالاجهزة السرية ، ويكتفي من العمل السياسي بالخطب . وينجح احيانا بضربات الحظ العبقريّة ، رغم انه يبدو كالنبي الذي ارسلته « القوى الغيبية » لحكم وقيادة شعب مصر ، ويطلب بان تخضع له ولتجاربه شعوب الامة العربية .. وبالتالي - منطقيا - فلا بد ان يكون هو الذي جذب اليسار ، ولا يمكن ان نكون نحن الذين انتصرنا ، بل « ارادة الصمود » التي بثها هو في قواطنا المسلحة التي ينبغي ان نفتني بها في النظام والدقة والكفاءة حتى نتخلص من عيوب عهد عبدالناصر .

.. هذه خلاصة امينة لما قاله الكاتب .. وانا .. لم تعد لديّ القدرة على مزيد من التطبيق على مثل هذا الكلام .. الآن على الاقل !
القاهرة

كناصري) فانه يملئ ان الميار الوحيد للحكم على التجربة الناصرية هو ما حققته للقضية المصرية اي قضية انتهاء الاحتلال البريطاني ، واعتقد انه بهذا القول يفتح الباب امام سؤال يمكن ان يدين ثورة ٢٣ يوليو ادانة ظالمة رغم شكلها الحقيقي : سؤال عن : وماذا عن الاحتلال الاسرائيلي ، وما حدث بسببه ومن خلال العمل على « ازالة آثار عدوانه » ، على المستوى المصري ، والعربي ، وعلى مستوى جميع الدول النامية الفقيرة (غير المنتجة للبترول) والذي طوح بها العمل العربي على ازالة آثار العدوان الى هوة مظلمة من الافلاس تقريبا بسبب القفزة الهائلة المفاجئة في اسعار الطاقة والمواد المصنعة والمواد الغذائية ، القفزة التي جعلت التضخم السابق عليها حلما ورديا بالنسبة لكابوسها المزعج . (ومصر بالذات واحدة من هذه الدول .. فتاملوا ! !)

ويتجاهل محمد عودة لمعايير التنمية ورفع مستوى معيشة الجماهير الفقيرة ومحو الامية ومكافحة البطالة والمرض والاستغلال ، وممياز الديوقراطية ، بل بتكريسه لميسار « اللاديموقراطية » وظهور الطبقات الجديدة والانحرافات والبيروقراطية والفساد واعتبارها ظواهر عادية ، فدرية لا مهرب منها الا « استمرار الثورة » - نفس الثورة التي تتجاهل ان معاييرها اشياء اساسية من اجل ان تصبح الثورة « ثورة » فعلا ... بذلك التجاهل وهذا التكريس يصبح مقال محمد عودة في الحقيقة نوعا من « الرثاء » الذي هو مديح الموتى .. يسيء حتى الى القضية التي يدافع عنها ..

هل نطالبهم ، اذن ، بان ينفذوا انفسهم ، وان يبدأوا من جديد ؟ هل نطلب من الليبرالي ان يكون ليبراليا حقيقيا ومن الاشتراكي العلمي ان « يفصل وجهه » لكي يستعيد « نقاءه الثوري » ... انها ليست مشكلة اخطاء في التحليل السياسي ، ولا في

دار الاداب تقدم

امراأتان في امرأة

رواية بقلم

الدكتورة نوال السعداوي

صدرت حديثا